الدراسات اللغوية عند المستشرقين
المدرسة الاستشراقية الألمانية أنموذجا

د. بن يوسف شتيح
جامعة عمار ثليجي بالأغواط- الجزائر

تاريخ الارسال:2018-08-30 - تاريخ القبول: 2018-09-02 - تاريخ النشر: 2018-10-03

الملخص :

إن ما قدمه المستشرقون للتراث العربي شيء لا ينبغي أن يجحد، والاستشراق بمدارسه المتنوعة لكل مدرسة منه كيانها المستقل من حيث الأهداف والرواد والمؤسسون، والأسلوب المنهجي والعلمي الذي خدمت به هذا التراث. ويرى بعض الباحثين في الظاهرة الاستشراقية أن المستشرقين ليسوا على خط واحد في تعاملهم الإيديولوجي مع تراثنا العربي أدبيا كان أم لغوي، وليسوا على مسافة واحدة حيث أمكن تصنيفهم إلى صنفين اثنين: فمنهم المتحاملون الحاقدون الذين ما درسوا التراث إلا لأهداف مسبقة معلنة وغير معلنة، وهذا توجه أغلب المدارس الاستشراقية. وهناك المنصفون اللذين التزموا الحياد العلمي الظاهر، بل منهم المنبهرون بالتراث العربي والمدافعون عنه أحيانا حتى جر ذلك عليهم الكثير من الأتعاب والأذى. ومن المدارس الاستشراقية التي صنفها الباحثون ضمن هذه الظاهرة، المدرسة الألمانية التي كان لها الإسهام الوافر لا سيما في مجال الأدب واللغة العربية، وهذا البحث يناقش في إيجاز الجهود اللغوية التي قدمها الاستشراق الألماني،

وذلك من خلال أبرز الشخصيات التي قدمت للعربية جهدا لا ينكر. ويثري أهم الخصائص المنهجية والذاتية التي انفردت بها المدرسة الألمانية.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق الالماني ; الدراسات اللغوية ; المستشرق ; الألمان

Summary

The orientalists' heritage of the Arab heritage is something that should not be denied, and the Orientalism of its various schools for each school, its independent entity in terms of goals, pioneers and founders, and the methodological and scientific method in which it has served this heritage. Some Orientalist scholars see Orientalists as not one line in their ideological dealings with our Arab literary or linguistic heritage. They were not one distance away. They were categorized into two categories: some of them were the hateful prejudices who studied heritage only for declared and undeclared goals. Most oriental schools go. There are the moderates who have committed themselves to apparent scientific neutrality, and even those who are proud of the Arab heritage and who defend it at times, even dragging them a lot of fees and harm. The German school, which had a great contribution especially in the field of literature and Arabic language, and this research discusses the summary of the linguistic efforts offered by the German Orientalism, through the most prominent figures who provided the Arab effort undeniable. And enriches the most important methodological and subjective characteristics that characterized the German school.

1 - الاستشراق مفهومه وأبرز مدارسه وأهم خصائصه:

لقد أصبح الاستشراق اليوم علما له كيانه ومنهجه، ومدارسه وفلسفته، ودراساته ومؤلفاته وأغراضه وأتباعه، ومعاهده ومؤتمراته..وهو اتجاه فكري يعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة وحضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة، وقد كان مقتصرا في بداية ظهوره على دراسة الإسلام واللغة العربية، ثم اتسع لدراسة الشرق كله بلغاته وتقاليده وآدابه، ولقد نالت ظاهرة الاستشراق حظا وافرا من الدراسات والأبحاث، واختلفت الآراء حولها، وكانت محط جدل واسع بين مؤيدين ومعارضين، بل نستطيع الجزم أن هذه الظاهرة من أكثر المسائل إثارة للجدل والنقاش، وسوف يستمر لأزمنة لاحقة، حتى يتم فهمها فهما علميا بعيدا عن التعصب والولاء، والهوى والأحكام المسبقة.

وكثيرة هي الدراسات والمؤلفات التي غرقت في إبراز وتحليل الجوانب الفكرية، والأيديولوجية لظاهرة الاستشراق إلى حد التطرف في أن كل ما أنتجه المستشرقون حول الدراسات الإسلامية والعربية ملغوما ولا يمكن اعتباره من المراجع العلمية الموثوقة، وغرق فريق آخر في التبجيل والتعظيم لما أنتجه المستشرقون عن الشرق وحضارته وآدابه وكل ما يتعلق به، "والدراسات الاستشراقية وإن كانت قد تعددت أغراضها، وتباينت أهدافها إلا أنها لم تكن خالية من الفائدة العلمية التي لا مناص لنا من الاعتراف بها فالمستشرقون قاموا بجمع المخطوطات العربية والإسلامية والشرقية وفهرستها، وحققوا العديد منها بأعلى المقاييس العلمية والمتعارف عليها، ونشروها نشرا علميا خالصا، وترجموا الآلاف من هذا التراث إلى اللغات العلمية، وعرفوا الآخرين بحضارتنا وتراثنا، ومن هنا فإن هذه الدراسات الاستشراقية تستحق منا الإطلاع عليها ودراستها لا بالثناء المطلق، ولا بالتحامل المطلق، بل نخضعها لمعايير البحث العلمي الصارم، ومهما بلغت هذه الدراسات من الموضوعية في مضمونها إذا سلمت من التعصب والهوى، فإنها لا تخلو من هنات وأخطاء لغوية أو علمية أو تاريخية سببها الجهل باللغة العربية أو اللغات الشرقية الأخرى، فهؤلاء القوم مهما بلغت معرفتهم بلغتنا وحضارتنا، فقد يغيب عنهم فهم العديد من المصطلحات والتعابير اللغوية.. ولا ننسى أن الإطلاع على الدراسات الاستشراقية يقودنا إلى الاستفادة من تلك المناهج العلمية التي طبقها المستشرقون في دراساتهم خاصة تلك المناهج الموسومة بالعلمية والموضوعية، والدقة في التحقيق والاستقراء، كما لا يغيب عن أذهاننا ما يمتاز به المستشرقون من الصبر والمثابرة، وتجشم الصعاب والأخطار، والتضحية بالنفس والمال، تكاد تكون مضرب الأمثال"[1].

لقد ألم المستشرقون بجميع مناحي الحياة الشرقية والإسلامية ولم يدعوا مجالا إلا وأدلوا فيه بدلو، ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا وكان لهم فيها مقال، ولم يهملوا جزئية أو رأيا مهما كان تافها، إلا وأشبعوه بحثا وتحليلا، فمن واجبنا أن نطلع على دراساتهم ومؤلفاتهم حول تراثنا العربي والإسلامي والحكم عليها من خلال المنظار الموضوعي بعيدا عن التعصب والأحكام المسبقة. وفي حدود علمنا تعد الدراسات العربية حول الإنتاج الاستشراقي في مجال الثقافة الإسلامية عموما غزيرة كالمستشرقين والقرآن أو السنة النبوية أو السيرة والتاريخ الإسلامي أو الفقه والتشريع وغيرها. أما الدراسات اللغوية والأدبية فقد كانت قليلة لاسيما الأبحاث والدراسات المتعلقة

بالدرس اللغوي عموما، فلقد أسهم فيه المستشرقون بقسط كبير، ولم ينل ما يستحق من العناية والدرس. وكان حظ المدارس الاستشراقية الكثيرة متفاوتا في الدراسات اللغوية والأدبية، فبعضها جمع بين المجالين، وبعضها نحا منحى التخصص. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن عناية الاستشراق باللغة العربية تركز على " دراسة كل ما يتصل بها فبحث في فقهها، وأصواتها، ولهجاتها، وصرفها ونحوها، ومعاجمها، وأطوارها، ومادتها، وبلاغتها، وفلسفتها، وعلاقتها باللغات الأخرى، خاصة السامية، ومميزاتها وعناصرها، وتاريخها، ونقوشها، وكل ما أنتجته هذه اللغة حتى يبدو وكأنه قد صب اهتمامه كله عليها، وذلك لصلتها الوثيقة بالقرآن والحديث والشريعة على حد سواء."[2].

2- من خصائص المدرسة الاستشراقية الألمانية:

وكان الاقتصار على هذه النخبة من المستشرقين الألمان عينة تنبئ عن مدى الشغف الذي سيطر على نفوس الباحثين في الشرق ولغته من كبار المدرسة الألمانية. ولا يعني ذلك أن ما ذكر من هذه الأسماء اللامعة، أنه لا يوجد غيرهم من الذين كرسوا أعمارهم في البحث عن اللغة وأسرارها، وعلومها، وفقهها إلى غير ذلك. " فلقد اعتنى المستشرقون الألمان بالعربية منذ فترة مبكرة، فقد نشر الألماني "فلهلم بوستل" "wilhelmpostel" سنة 1538م مصنفه الأول في "قواعد العربية" "Grammatica Arabica" ولكنه كان باللاتينية كما هي الحال السائدة في أوربا آنذاك. وقد زاد نشاطهم واهتمامهم بالعربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي فترة طويلة نسبيا، صنفوا خلالها كثيرا من البحوث العلمية والكتب التعليمية، وتأثرهم واضح بالدرس اللغوي عند العرب، خاصة الجيل الأول منهم مثلا: "فلايشر" "Fleischer"، و"كاسبراي" "Caspori"، و"ركندورف" "Reckendorf"، ثم أخذ يقل تدريجيا إلى أن أصبح بدرجة أقل عند "سوتزين" "Socin" و"بروكلمان" "Brochelman" وقد اهتم المستشرقون في الماضي بالفصحى التراثية التي أسموها العربية الكلاسيكية، ثم اهتموا بالعربية المعاصرة التي أسموها بالعربية المعاصرة المكتوبة، والعاميات المعاصرة."[3]. وقد تناول بعض الدارسين جهود الألمان اللغوية، وأولوها عناية خاصة ذلك لما تمتلكه هذه المدرسة من تراث واسع حول اللغة العربية على وجه التحديد[4]. وتمتاز المدرسة الاستشراقية الألمانية عن غيرها من المدارس الكثيرة على وجه العموم بجملة من الخصائص حيث " يؤكد معظم الباحثين العرب أن الاستشراق الألماني لم يخضع لغايات سياسية أو دينية أو

استعمارية بحجة أن ألمانيا لم يتح لها إستعمار البلاد الإسلامية، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق، وهذه الخاصية ليست صحيحة في إطارها العام لأن الاستشراق الألماني كان مبعثه تحقيق الأهداف الدينية.. وإن ألمانيا لم تتعفف عن استعمار البلاد العربية والمشرق، ولكن الظروف الدولية منعتها من ذلك، خاصة المنافسة البريطانية لها، ولا يمكن أن نبرئ ألمانيا من نواياها الاستعمارية. ولقد تميز الاستشراق الألماني بالدراسات الشرقية القديمة والحقبة الإسلامية واهتم بالآثار والأدب والفن، وهذا النوع من الدراسات عادة ما يكون خاليا من تحقيق أي غرض من الأغراض السياسية. وإن هذه المدرسة امتازت أيضا عن غيرها بغلبة الروح العلمي على أبحاثها والتي تتسم غالبا بالموضوعية والتجرد والإنصاف، وهذه الروح التي امتازت بها المدرسة الألمانية مبعثها تلك الخصال المميزة للشعب الألماني المجبول على الدقة البالغة، والعناية الفائقة، والصبر الجميل، وإتباع المنهج العلمي الصارم بأعلى المقاييس العلمية المتعارف عليها، ومع ذلك لا يمكن أن يخلو من تحقيق أهداف سياسية. نعم لقد جاءت الدراسات الاستشراقية الألمانية خالية من العداء للعرب أو التحامل عليهم. والسبب في ذلك في رأينا هو اهتمام هذه المدرسة بالتراث العربي القديم والآداب والآثار القديمة، وكان اهتمامها مميزا في الدراسات النحوية، والصرفية والبلاغية والعروضية، وفي فقه اللغة."[5].

والمدرسة الألمانية الاستشراقية كغيرها من المدارس الأخرى قد جعلت العرب والمسلمين وتراثهم وحضارتهم موضوعا للدراسة سخروا ما بوسعهم من جهد مادي ومعنوي لتحقيق ما يهدفون إليه من وراء اهتمامهم المتميز بالشرق ولكن لكل مدرسة استشراقية خصائصها وخطتها وخلفيتها الفكرية والمذهبية تتجلى أثناء البحث والدراسة لشؤون الشرق عموما والشرق العربي والإسلامي على وجه الخصوص ولكن " يتميز الاستشراق الألماني بميزة خاصة حيث لم يرتبط إلا في القليل النادر بالاستعمار الذي سيطر على عالمنا الإسلامي ردحا من الزمن، ومن هنا حظي بسمعة طيبة، وذلك فضلا عن تميزه في كثير من الأحيان بالموضوعية. ونذكر في هذا المقام كتابات العديد من المستشرقين الألمان بدءا من "رايسكه" وانتهاء "زغريدهونكه" و"آناماري شميل" في العصر الحاضر. وهناك بطبيعة الحال أمثلة أخرى كثيرة تتسم بتلوينات سلبية سواء كان ذلك عن قصد أو سوء فهم للنصوص، أو خطا في الاستنتاج أو غيرها."[6].

لقد تناول بعض الباحثين في الشؤون الاستشراقية الاستشراق الألماني بالدراسة الوافية، وقد سبقت الإشارة إلى أولائك المهتمين بهذه المدرسة وما ألفوه حول روادها وأبرز سماتها الفكرية، وأصولها المنهجية وأهم توجهاتها في دراسة التراث العربي والإسلامي، والمراحل التاريخية التي مرت بها. " فأهم السمات التي اتسم بها الاستشراق الألماني ما يلي:

تعدد مجالاته سواء أكان ذلك في موضوعات الاستشراق التقليدي أم في الموضوعات المعاصرة.

أن علم الشرق المرتبط بالعصر الحاضر، يقصد منه دراسة الشرق على مستوى العلوم الإنسانية والعلوم التطبيقية.

عدم اختفاء الهدف التنصيري في أعمال عدد من المستشرقين الألمان حيث ساهموا في رحلات البحث إلى فلسطين على اعتبار أنها أرض الكتاب المقدس، كما تم إنشاء المعهد الانجليزي في فلسطين.

كان الهدف الاستعماري من بين الأسباب التي أدت إلى الاهتمام بالدراسات المعاصرة في العالم الإسلامي، ويظهر ذلك في أعمال "كارل هينرش بيكر"، والذي أسس معهد المستعمرات في هامبورج.

تميز الاستشراق الألماني بوجود التخصصات البينية للمساهمة الشاملة في دراسة الشرق حيث تتعاون تخصصات غير استشراقية مع تخصصات استشراقية في إصدار أعمال شاملة عن الشرق.

وجود معاهد بحث خاصة بالأبحاث المرتبطة بالشرق، وغير تابعة للجامعات مثل معهد "ماكس بلانك".

رغم التطورات العديدة التي طرأت على الاستشراق الألماني، وميل غالبية الباحثين إلى الدراسات المعاصرة، إلا أن الاستشراق التقليدي لا يزال الأساس الذي يعتمد عليه الاستشراق المرتبط بالعصر الحاضر."[7].

وكان اهتمام المدرسة الاستشراقية الألمانية كغيرها من المدارس الأخرى ببعض القضايا التي لا تخلو من أهداف وأغراض، ولكن قد تكون بدرجات متفاوتة بين المدارس الاستشراقية كقضية التصوف والمتصوفة لاسيما ما يعدونه من قبل الاضطهاد ومصادرة للحريات لفئة من أهل التصوف الذين كانت لهم آراء شاذة كالحلاج، وابن عربي وغيرهما. وقضية اللهجات، واللغات الدارجة والتي قدم فيها المستشرقون عموما دراسات مستفيضة، ومسألة الفرق الإسلامية وطروحاتها الفكرية والعقدية خاصة تلك التي عانت عبر التاريخ كالمعتزلة والشيعة وغيرها من المسائل التي جذبت انتباه المستشرقين وقدموا فيها رسائل أكاديمية ونالوا بها رتبا علمية مرموقة. وعن الأصول المنهجية المدرسة الألمانية فقد عدها الدارسون فرنسية الينابيع والأصول " ففي مطلع القرن التاسع عشر وبفضل العلامة "دي ساسي" أستاذ العربية والفارسية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس الذي جدد الدراسات العربية، ولاسيما علمي النحو والصرف في أوربا جمعاء، فقصده الألمان وغيرهم، وتتلمذوا عليه وتأثروا به ومن أشهرهم "فلايشير" و"إيفالد" فعدا مؤسسي الدراسات العربية في ألمانيا وتخرجا عليهما كبار المستشرقين."[8].

ويرى الباحثون في الاستشراق الألماني أنه مر بتطورات متعددة خلال تاريخه " فمع انتهاء الحرب العالمية الأولى يلاحظ اتجاه علماء الدراسات الإسلامية بقوة نحو الموضوعات التاريخية والتركيز على العمل الفيلولوجي، فقد كان من الطبيعي أن يؤدي انتقال السلطة إلى النازيين، إلى إبعاد عدد من المستشرقين الألمان المشهورين إلى الخارج بعد 1933 لأسباب سياسية وعنصرية، وقد كان النازيون يميلون إلى التقليل من الدراسات الشرقية، وذلك بإدعاء أن الدعم للاستشراق لمدة عقود طويلة أدى إلى تحويل النظر عن دراسة الثقافة الألمانية المميزة..وقد أدى هذا إلى أن تحتل علوم الإسلام مكانة ضئيلة في خريطة البحث الألماني مثلها مثل علوم الاستشراق بصفة عامة."[9].

ويعد صلاح الدين المنجد من المتخصصين في الاستشراق الألماني كما ذكرنا قبل، حيث أثرت عنه دراسات واسعة، أحاطت بشؤون هذه المدرسة المتميزة في نظره. فكتب تحت عنوان: "لمحات من عظمة الاستشراق الألماني" " والمتتبع لحركة هذا الاستشراق يلاحظ أنه اختص بمزايا واضحة، وهي في رأيي:

لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية، كالاستشراق في بلدان أوروبية أخرى فألمانيا لم يتح لها أن تستعمر البلاد العربية أو الإسلامية، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق لذلك لم تؤثر هذه الأهداف في دراسات المستشرقين الألمان، وظلت محافظة على الأغلب على التجرد والروح العلمية. وإذا ظهر في بعض الدراسات الاستشراقية الألمانية بعض الانحراف في الرأي، أو الخطأ، فهذا أمر لا يمكن تعميمه في الدراسات كلها.

لم تكن دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والإسلام والحضارة الإسلامية العربية متصفة على الأغلب بروح عدائية. نعم لقد وجد بعض المستشرقين الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين، أو بآراء خاطئة تماما كبعض آراء "نولدكه" عن الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، أو آراء "فوللرز" "Vullers" عن القرآن وتهذيبه، لكن هذه الآراء معدودة، فالاستشراق الألماني لم يعرف مستشرقين جعلوا ديدنهم عداء العرب والإسلام، وتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم، بل العكس وافقت هذه الدراسات روح إعجاب وتقدير وحب وإنصاف. فعلى سبيل المثال نجد "رايسكه" سمى نفسه "شهيد الأدب العربي". حتى إن بعضهم أسلم حبا للعربية والإسلام مثل: "ريشر" الذي سمى نفسه "عثمان" بعد إسلامه، وقد نال بعضهم الكثير من المتاعب والأذى في سبيل العربية، ومنهم من كف بصره وهو يبحث لسنوات في النصوص العربية يحققها على نفقته الخاصة.

المنهج العلمي الدقيق الذي يعتبر عند بعضهم مثالا نادرا يحتذى.

ولست أنكر أن في إنتاج بعض هؤلاء المستشرقين نقصا وأغلاطا، ولكن يكفي أنهم عملوا بحماسة وحب بقدر ما أسعفتهم به المعرفة والمصادر، ولقد استدرك بعضهم على بعض بإخلاص، وصحح بعضهم أخطاء بعض، وكانوا علماء حقا يقبلون كل نقد وتصحيح."[10].

سبق التعرض في المبحث السابق لشخصيات استشراقية من المدرسة الألمانية كان لها العطاء الغزير في ميدان الدراسات العربية وتركوا البصمات الواضحة على تراثنا العربي، وكان الوقوف على أبرز هذه الوجوه العلمية على سبيل التمثيل وليس الحصر، وقد نالت هذه المدرسة قسطا من البحوث والمؤلفات من قبيل الجمع والاستقصاء، أو النقد والتقييم فبالإضافة إلى موقف ادوارد

سعيد من الاستشراق الألماني الذي أشير إليه آنفا. وهناك آخرون برأوا ساحة هذه المدرسة من الخلفيات الإيديولوجية أو الأهداف غير العلمية، ومن بين هؤلاء " صلاح الدين المنجد الذي كان أكثر من كتبوا عن الاستشراق وتعاطفوا مع الاستشراق الألماني، وتبرئته من التبعات غير العلمية التي ألصقت بالمستشرقين من جنسيات أخرى، وظهر منه ذلك في عدد من الدراسات الهامة، والأعمال المتخصصة، والتي ركز فيها على هذا النوع من الاستشراق منها: " المستشرقون الألمان وتراجمهم وما أسهموا به من الدراسات العربية"، ومنها:" المنتقى من دراسات المستشرقين"، وكذلك: "الاستشراق الألماني في ماضيه ومستقبله"."[11].

3. من رواد المدرسة الاستشراقية الألمانية وإسهاماتهم اللغوية:

تتمثل جهود المستشرقين على مدى تاريخهم الطويل بما في ذلك المدرسة الألمانية في أعمال مختلفة تشكل في مجموعها كلا واحدا لخصها المهتمون بشؤون الاستشراق في جملة من الأعمال الكبرى يأتي في مقدمتها: التدريس الجامعي حيث لا توجد جامعة في أوربا أو أمريكا إلا وقسم أو معهد منها خاص بالدراسات العربية والإسلامية بل يوجد أحيانا في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق مثل جامعة "ميونيخ" تقوم هذه المعاهد بالتدريس وتعلم العربية وتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه، ولكل معهد مكتبة عامرة بالكتب العربية والإسلامية "وكان اهتمام المستشرقين بجمع المخطوطات منقطع النظير مبنيا على وعي عميق بقيمتها وما تحمله من تراث غني في شتى المجالات العلمية.. وقد قام المستشرق "آلوارد" "Ahlwardt" بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة "برلين" في عشرة مجلدات بلغ فيها الغاية فنا ودقة وشمولا صدر في القرن التاسع عشر، واشتمل على عشرة آلاف مخطوط، ومن الإنصاف القول أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوط إلى أوربا قد يصل إلى الآلاف قد تهيأت له وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة"[12]. ولم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطات وفهرستها بل تجاوز ذلك إلى التحقيق والنشر فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث، وقابلوا الفروق بين النسخ وأثبتوها، ورجحوا ما حسبوه الأصح والأعدل، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام، وقاموا أحيانا ببعض الشروحات لبعض الكتب فكان عملا مفيدا. ومن الكتب الكثيرة نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الإتقان للسيوطي، وكتاب سبويه، والاشتقاق لابن دريد، ومعجم الأدباء لياقوت

الحموي، واللمع لابن نصر السراج، والبديع لابن المعتز، والكامل للمبرد، والجمهرة لابن دريد والتعريفات للجرجاني، والمقتضب لابن جني، والأغاني للأصفهاني، وعدد هائل من الدووين وكتب لا حصر لها في الشؤون الإسلامية.

ومن الوسائل التي عمد إليها المستشرقون في خدمة التراث أنهم " قاموا بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة، وتعددت أيضا مجالات التأليف عندهم، فبلغ عدد ما ألفوه في الشرق في قرن ونصف أي منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ستين ألف كتاباً، وفي الكثير منه فائدة علمية للباحثين، ولهم مؤلفات مليئة بالطعن في الإسلام، وهذا ما تصدى له العلماء والمحققون"[13]. غير أن ما لاحظه الدارسون للظاهرة الاستشراقية أن معظم الدراسات التي أجراها المستشرقون حول الثقافة الإسلامية عموما لم تخل في أغلبها من التشكيك وإثارة الشبهات، وبث السموم تحت تأثير الأهداف السياسية غير المعلنة، ولكننا نلاحظ أن الأمر يختلف عنه في الدراسات اللغوية والأدبية إلا شيئا قليلا مقارنة بالدراسات الإسلامية التي كانت أكثر خصوبة للتشويه والتلغيم.

وتعد المدرسة الاستشراقية الألمانية رائدة في الدراسات اللغوية على وجه الخصوص بفضل كثرة روادها فقد أحصينا في كتاب العقيقي "المستشرقون" وحده عددا جاوز 240 مستشرقا[14]. ناهيك عن المعاجم التي ألفت تحصى تراجم المستشرقين الألمان وغيرهم على اختلاف مدارسهم وتفاوت إسهاماتهم وإنتاجهم الثقافي لغويا كان أم أدبيا أم إسلاميا." وبالرغم من اتصال ألمانيا بالشرق منذ الحروب الصليبية الأولى، وانشقاقها عن الكاثوليكية بعد الثورة الدينية التي قادها "مارتن لوثر" وبالرغم من تدبيج بعض الكتب عن اللغة العربية وخاصة كتاب "كريستمان" الذي أعده لتعليم كتابة الحروف العربية منذ 1585 م، وبالرغم من حاجة المذهب البروتستانتي الجديد لدراسة التوراة لمقارعة ومجادلة الكاثوليكية، فإن الدراسات الاستشراقية الألمانية لم تزدهر إلا في القرن الثامن عشر خلافا للبلدان الأوروبية الأخرى، وبلغت هذه الدراسات أوجها بعد أن تخرج على يدي "دي ساسي" عشرات من المستشرقين الألمان"[15].

وسوف يطول بنا المقام لو رحنا نستعرض المستشرقين الألمان ومساهمتهم العربية والإسلامية، وما يهمنا الحديث عنه هو أهم الأعمال والمنجزات التي لفتت أنظار الباحثين العرب في المجال اللغوي، وأولوها عنايتهم الخاصة، معترفين أن ما قدمه المستشرقون من المدرسة الألمانية لا ينبغي الاستهانة به، أو تجاهل القيمة العلمية لجل الدراسات الاستشراقية لهذه المدرسة في اللغة العربية علما أن فريقا من المستشرقين الألمان توجه إلى الدراسات الإسلامية، ومنهم من ولى وجهه شطر اللغة العربية وعلومها وآدابها، واختار فريق ثالث الدراسات الإسلامية والعربية ليضرب في كل منها بسهم وافر، وإنتاج زاخر. ومهما يكن من خلاف في مسألة الأهداف السياسية والدينية في نشاط المدرسة الألمانية فإننا نؤكد مرة أخرى على أن أعمال المستشرقين عموما في الدراسات الإسلامية لا تخلو من الشبهات والأحقاد والطعون، فهو ظاهر لا يستطيع المستشرقون أن يتجاوزوه، ولكن دراساتهم في مجال اللغة يكاد يخلو من التعصب والهوى والكراهية والعداء رغم التباين العقدي والفكري والمنهجي والحضاري.. ولذلك لا يمكننا بحال من الأحوال " أن ننكر مساهمات المدرسة الألمانية في نشر الثقافة الإسلامية، وبيان الحضارة العربية، وذلك لما نشرت من نصوص قديمة ساعدت على نشر آلاف من أمهات الكتب العربية والإسلامية. وجعلتها ميسورة للمثقفين الغربيين، كما كانت مجهوداتها لا تجحد في مجال فهرسة المخطوطات العربية، وقيامها بتصنيف العديد من المعاجم العربية، واهتماماتها بالدراسات المختلفة في ميادين الثقافة الإسلامية، واتباعها لمنهج علمي دقيق فرضته الطبيعة الألمانية وخصال شعبها، واهتمام هذه المدرسة بعد الحرب الثانية بأحوال الوطن العربي ودراسته من جميع جوانبه، وهذه جميعها خصائص إيجابية لا ننكرها، أو نقلل من قيمتها. ومع ذلك تبقى هذه الدراسات غير مبرأة من الأهواء، وتحقيق أغراض لا علاقة لها بالمنهجية العلمية والموضوعية والحيادية أحيانا."[16].

وتألقت المدرسة الألمانية في العلوم العربية وغيرها على أيدي عدد هائل من المستشرقين علا كعب فريق منهم في التأليف والتصنيف، والأبحاث والتحقيق أخذت اللغة العربية جل اهتمام كثير منهم، فكان التفاوت والتباين ملحوظا في إنتاجهم كما وكيفا، وسوف نقتصر على إبرار بعض الشخصيات الاستشراقية اللامعة التي كانت لها اليد الطولى في إثراء الثقافة العربية، والتراث العربي، ونسلط الضوء على الذين عرفوا بغزارة الإنتاج وسعة الإطلاع، وتنوع التأليف، والذين

اشتهروا بالإنصاف والروح العلمية، والدقة والعمق في تناول الظواهر اللغوية، ممن شهد لهم بذلك جمهور اللغويين، وتلقوا أعمالهم وإسهاماتهم بقبول حسن، وصنفت على أنها جهود في خدمة التراث العربي لا يمكن تجاوزها أو الاستخفاف بها. وعكف جمع من الباحثين العرب في شؤون الاستشراق وإسهاماته اللغوية أو الأدبية على جمع ودراسة الكثير مما أنتجه المستشرقون من ذلك ما لوحظ أن " البلاغة العربية والنقد الأدبي العربي حظي باهتمام المستشرقين الألمان فقد أصدر "أوجيست فون ميرن" "August vonmehren" سنة 1853 كتابا عنوانه "بلاغة العرب" وقف فيه عند عدد من المصطلحات البلاغية وشرحها شرحا عميقا.. ويعد "فلفهارتهاينرشس" من أهم المستشرقين المهتمين بالدراسات العربية المتصلة بالأدب والنقد القديمين والبلاغة وله بحوث عديدة منها: مؤلف عن "صلة النقد عند حازم القرطجني بالنقد عند أرسطو" وقد نشر بالألمانية سنة 1969. ومنها: "يد الشمال": آراء حول الاستعارة. وبحث حول العلاقة بين البديع والاستعارة في الكتابات النقدية العربية القديمة نشر بالانجليزية عام 1984. ومنها بحث حول: "البديع عند أبي نواس". ودراسات أخرى."[17].

ويعمل بعض الباحثين العرب على جمع أعمال المستشرقين اللغوية مشفوعة بالتعليق والشرح والتحليل كما فعل "يوسف أبو العدوس" في كتابه " الاستعارة في دراسات المستشرقين". وكتبت مقالات كثيرة على هذا المنوال كالمقال الذي كتبه "ملك ميمون" بعنوان "المستشرقون ودراسة العروض العربي" حيث اعتبر أن من "المستشرقين الذين تناولوا العروض العربي بالدراسة والتحليل "فايل" "weil" الألماني إذ نجد له مقالا في دائرة المعارف الإسلامية سنة 1960 تحت عنوان "العروض" والمقال من عشر صفحات سبع منها خصصت للمعلومات التاريخية العامة عن العروض، والأخرى للحديث عن النبر، كما نجد له كتابا خاصا عن العروض العربي طبع سنة 1958 وهو بالألمانية"[18]. ونود أن نشير أن "ادوارد سعيد" ناقد الاستشراق الشهير الذي استثنى الاستشراق الألماني من هذا البحث. وقدم تبريرات لذلك في حوارات أجريت معه، لكن هذا الاستثناء شكل ميزة اعتبرها كثير من النقاد والباحثين صك براءة للاستشراق الألماني من المثالب التي كشفها "ادوارد سعيد" حول الاستشراق الغربي عموما وقد اهتم النقاد بتجربة سعيد المعرفية والفكرية والثقافية حيث استثنى بوضوح الاستشراق الناطق بالألمانية من النقد، وذلك لارتباط

أغلب الدراسات الاستشراقية المكتوبة بالألمانية بفقه اللغة، وتتأسس مقولة سعيد " بأنه لا ينبغي أن نصنف الاستشراق الناطق بالألمانية في نفس الدرجة التي يصنف بها الاستشراق البريطاني والفرنسي وذلك على فرضية أن مفهوم "الشرق" نتيجة لمشروع ثقافي بريطاني وفرنسي خاص مرتبط بالتورطات البريطانية والفرنسية في الشرق، وكان سعيد يرى أن البلدان الإسلامية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت مستعمرة من قبل بريطانيا وفرنسا فقط وسيطرت عليها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية المصالح السياسية للولايات المتحدة الأمريكية"[19]. وهذا الاستثناء للاستشراق الألماني في نقد سعيد قد أثار انتقادات بعض الدارسين، وبغض النظر عن ما وجه إليه من استدراك إلا أن كلامه يعزز ما وصف به الاستشراق الألماني من غلبة الأنصاف والعلمية على أبحاث ودراسات جمهور الألمان للتراث العربي. وفيما يلي نقف عند أبرز الشخصيات الألمانية التي شاعت بإنتاجها الواسع للعربية وعلومها، وآثارها التي لفتت الأنظار.

أ. رايسكه. ج. ج Johann Jakob. Reiske

كانت حياة "رايسكه" ما بين 1716- 1774 وهو أول مستشرق ألماني جدير بالذكر، ولد في "تسويج"، وتعلم اللاتينية واليونانية بدار الأيتام في "هاله"، والعربية دون معلم في "ليبزيج"، وكان ينفق ما يحصل عليه على اقتناء الكتب. " اتصل "بيوهان كريستوف فولف" فأعطاه مخطوط مقامات الحريري فنشر إحداها، وذهب إلى "ليدن" فلقي المكتبة مقفلة لفصل الصيف، ولا مال عنده فاستخدمه الكتبي "لوزاك" مراجعا لمنشوراتها، ثم علم اللاتينية واليونانية وعاش عليهما، وتبحر في العربية على "سخولتنس"، وبفضله دخل مكتبة "ليدن" وفهرس مخطوطاتها، وقد توجه إلى الشعر العربي، فاستنسخ أشعار جرير، ولامية العرب للشنفرى، والحماسة للبحتري، والمعلقات إلا أن خلافا نشب بينه وبين "سخولتنس" في الأدب العربي عطله على نيل الدكتوراه، فدرس الطب وأحرز الدكتوراه فيه عام 1746 ولم يزاوله، ورجع إلى ليبزيج عام 1747 حيث عين مديرا لإحدى مدارسها الثانوية سنة 1748، وعلم بعض مريديه العربية وترجم وصنف حتى جعل المدينة مركزا هاما للدراسات العربية في أوربا، فمنحه البلاط لقب أستاذ ورتب له راتبا إلا أنه توفي مسلولا فأهدت امرأته مكتبته إلى "ليسنج" الشاعر الألماني الشهير، ثم اشتراها دانمركي، ووقفها على مكتبة كوبنهاجن."[20].

أما آثار "رايسكه" ودراساته فتعددت في مجالات شتى أغلبها كان إنتاجا أدبيا ترجم أعمالا كثيرة إلى الألمانية، وحقق ونشر، وكانت له تفسيرات وتعليقات وشروحات وحواشي ومقارنات " فتناول معلقة طرفة بين العبد بشرح ابن النحاس متنا وترجمة لاتينية بتفسير وحواشي ومقارنتها بديوان الهذليين، وحماستي البحتري وأبي تمام وشعر المتنبي وأبي العلاء، فوضع بها الأساس العلمي للشعر العربي حتى اليوم.. ونشر رسالة هجو لأبي نواس بشرح الصفدي، والرسالة الجدية لابن زيدون بشرح الصفدي متنا وترجمة لاتينية، ولامية الطغرائي متنا وترجمة ألمانية، ومنتخبات من أشعار المتنبي متنا وترجمة، وسبعة أمثال للميداني وغيرها، وكتب مدخلا عاما إلى تاريخ الإسلام استنادا إلى حاجي خليفة في ثلاث مجلدات، وقد أطرى فيه تاريخ الإسلام ولام على إهماله، وأوصى بدراسته."[21].

وكلما درس العربية ازداد بها ولوعا، واستطاع إتقان النحو العربي، وحرم نفسه من الضروريات من أجل اقتناء الكتب العربية، "وأدرك أنه لن يشبع هذا الولوع إلا إذا اطلع على مخطوطات مكتبة ليدن الغنية، ورفض أي عرض من شأنه أن يصرفه عن العربية ودراستها، فلم يكن همه سواها، رغم قلة ما في اليد، حيث عاش ظروفا معيشة صعبة، ولم يشغل "رايسكه" نفسه بدراسة اللغات السامية الأخرى، رغم نصيحة بعض المستشرقين له لقناعته أنه لا فائدة من ذلك ترجى بالنسبة إلى دراسة العربية وكان يقول:" لو شاء المرء النهوض، فينبغي عليه ألا يتناولها تناول اللاهوتي" وعهد إليه ترتيب المخطوطات في مكتبة جامعة "ليدن" فتهيأت له فرصة ممتازة لتحقيق أمانيه في الإفادة من هذه المخطوطات، فقام ينسخ لنفسه المؤلفات التي تهمه منها فنسخ "المعارف" لابن قتيبة، و"تاريخ أبي الفدا" و"البلدان" لأبي الفدا، وتاريخ "حمزة الأصفهاني"، وغيرها."[22].

ب. إيفالدهينرشEwald Henrch

عاش "إيفالد" ما بين فترتي 1803-1875 بدأ دراساته الشرقية في ألمانيا ثم قصد "دي ساسي سلفستر" مع "فلايشير" فأخذا عنه وتخرجا بالعربية على يديه ويدين كثير من المستشرقين الألمان وغيرهم لدي ساسي الذي كان له الفضل في التعليم والتكوين لأعداد غفيرة من المغرمين بالشرق." فلما رجع إيفالدوفلايشير إلى ألمانيا أسسا أسس العلمية فيها. فكان "إيفالد" أستاذا للغات

الشرقية في "جوتنجين" فوجهها وجهة تاريخ العرب وأديانهم وآدابهم، فغدا من أعلام المستشرقين، وذهب له في اللاهوت البروتستانتي صيت بعيد، فتوافد الطلاب عليه من جميع الأقطار وترجمت آثاره إلى الإنجليزية وغيرها، إلا أن وقته لم يتسع للتصنيف الوافر ولاسيما بعدما وشى به بعضهم، فسجن ثم أطلق سراحه، وأكثر ما طبع له منها بعد وفاته ونشره "فللهوزن" تلميذه وخليفته في جوتنجن، وأهم أثاره:" العروض العربية"، وفتوح أرمينيا وبلاد ما بين النهرين للواقدي متنا وترجمة، وفهرس المخطوطات الشرقية، وكتب قواعد اللغة العربية بالألمانية في مجلدين، وجمع شعر على بن أبي طالب، وعدي بن زيد"[23]. " وقد كان كتابه:"دراسة نقدية لقواعد اللغة العربية" الذي صدر سنة 1831-1833 في مجلدين، محاولة جادة لوضع تفسير منطقي جديد لصيغ اللغة مكان نظام قواعد العربية الفصحى، وفي عمله حول "علم العروض العربي" سنة 1825، وفي الملحق الذي يحمل نفس الاسم، وبرهن فيه على طبيعتها النوعية، منتهكا بذلك حركة قواعد الفصحى وبموضوعية متشددة، وجنوح إلى الخيال غير مرة. فقد قدم "إيفالد" دفعا قويا للدراسات العربية. ولعل مما يضفي عليه أهمية خاصة أن المستشرقين: "نولدكه" و"فللهاوزن" عادة ما قدما نفسيهما بصفتهما تلميذين "لإيفالد". كانت اهتماماته الأولى دراسة العهد القديم، ثم توجه إلى دراسة اللغات.. فقد كان يسعى إلى تفسير صيغ اللغة بمساعدة القوانين العامة عقلانيا عبر المنهج التركيبي التأملي، متسلحا بالمعرفة الغزيرة والذكاء الخارق، من خلال المقارنة لما يربط هذه اللغات من أواصر قربى."[24].

ج. برجشتراسرGolthelfBorgstrasser

عاش برجشتراسر في الفترة ما بين 5أفريل1886 و16 أغسطس 1933 مسيحي برز في نحو العبرية واللغات السامية عموما، وعني بدراسة اللهجات العربية، وبالقراءات القرآنية. " تعلم في جامعة "ليبتسك" الفلسفة وعلم اللغة، والفيلولوجيا الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية). ثم تفرغ لدراسة اللغات السامية، وكان أستاذه الكبير فيها "فيشر أوجست" وبعد تخرجه عين أستاذا ثانويا، ثم حصل على الدكتوراه في 1912 في رسالة عنوانها "حنين بن إسحاق ومدرسته" اهتم فيها بدراسة أسلوب "حنين" - شيخ المترجمين - في الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية، وفي فبراير 1914 رحل إلى إستنبول، وسوريا، ومصر، وفي نهاية 1915 دعي أستاذا في جامعة "استنبول"

وكلفته وزارة الحربية الألمانية برحلة استكشافية لسوريا وفلسطين سنة 1917، وبعد الحرب الأولى عين أستاذا في جامعة برلين في 1919"[25].

"وفي العام الجامعي 1929/1930 و1931/1932 دعته كلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة لإلقاء محاضرات في النحو وتاريخه، وفي فن تحقيق النصوص فنشرت محاضراته في كتاب "التطور النحوي للغة العربية" وكتاب "نقد النصوص ونشر الكتب"."[26] استغل وجوده بالقاهرة لتسجيل بعض الإسطوانات لمختلف القراءات القرآنية لعدد من مشاهير القراء في مصر، واطلع على المخطوطات في علم القراءات، كما عني باللغة العامية المصرية وسجل اسطوانات مع الأطفال في القاهرة. " نال دكتوراه في جامعة "ليبزج" عام 1911 عن "استعمال حروف النفي في القرآن الكريم". وكان برجشتراسر يكره "هتلر" ودعوته إلى النازية، وكان لا يرى مانعا من حمل بندقيته والخروج لمحاربته فدفع إليه "هتلر" بمن يقتله، وكان برجشتراسر مغرما بتسلق الجبال، ففي إحدى المرات، حيث كان يتسلق الجبال، ومعه طالب من طلبته، إذ تعلق الطالب بقدمه فهوى من ارتفاع شاهق إلى قاع الوادي، حيث لقي حتفه في جبال الألب بنواحي "برشسجادن" جنوبي ألمانيا."[27].

أما آثاره فقد تنوعت في نشاط علمي واسع ما بين اللغات السامية، وتاريخ العلوم عند العرب، وقراءات القرآن " فكتب معجم قراء القرآن وتراجمهم، واللهجات العربية العامية في سوريا وفلسطين، وله دراسات حول كتاب: اللامات لأحمد بن فارس، وقراءة الحسن البصري، وقراءة القرآن في القاهرة، والقراءات الشاذة في كتاب "المحتسب" لابن جني، وفي مجال النشر تولى نشر أمهات الكتب العربية فنشر لابن خالويه: "القراءات الشاذة في القرآن"، و"طبقات القراء" لابن الجزري، وتهذيب اللغة للأزهري، ومن مباحثه: قواعد العربية لأحمد بن فارس، وله في ميدان القراءات القرآنية عمل مميز لما تهيأ له من معرفة واسعة بالكتب العربية المؤلفة في هذا المجال والتي جمع لها مادة ضخمة مثل "الميكروفلمات" من خزائن إستنبول والقاهرة."[28].

وله في الدراسات الفقهية عمل رائد، ثاقب نذكر على سبيل المثال: "أوليات وخصائص الفكر الفقهي في الإسلام" و"مناهج البحث في الفقه". وكان يدعو إلى عدم المبالغة في دعوى القانون

المقارن والبحث عن المؤثرات الأجنبية في الفقه الإسلامي، ومن أعماله اللغوية البارزة والتي تناولها بعض اللغويين "الأطلس اللغوي الذي عمله لبلاد سوريا وفلسطين، فقد قام بعمل تسجيلاته كلها بنفسه عام 1914 بعد أن حصل على إجازة من جامعة "ليبزج" ليقضي شهورا في بلاد الشرق فتنقل بين أرجاء المعمورة باحثا وراء اختلاف اللهجات الدارجة فزار دمشق وحلب والجنوب ثم فلسطين ولبنان وكانت حصيلة هذه التسجيلات أن وضع أطلسا لغويا في 42 خريطة تفصيلية، وواحدة إجمالية مع شرح لغوي مستقل طبع سنة 1915. وكان يرى أن بحث اللهجات العربية قبله كان مقصورا على دراسة كل لهجة محلية دراسة مستقلة، وبين أن هذه الدراسات السابقة تفتقر إلى التكملة بدراسة الفروق اللغوية، في مناطق كبيرة، باستخدام الجغرافيا اللغوية، وعلى الرغم من تقدم هذا الفرع من فروع الدراسة اللغوية في أوربا وأمريكا، فإنه لا يزال غض الاهاب في بلادنا وليس لدينا في لغتنا العربية، إلا محاولة هذا المستشرق الألماني "برجشتراسر" ولا يخفى ما لهذه الأنواع من الدراسة من الفوائد الجليلة على الدرس اللغوي."[29].

د. فيشير أوجيستFischer August

" ولد فيشير سنة 1865، وكانت وفاته في 14 فبراير 1949، اختص باللغة العربية نحوا وصرفا، ومعجما مواصلا الدرب الذي رسمه أستاذه اللغوي الكبير "هينرش فليشر" مؤسس مدرسة في الاستشراق الألماني، آخذا بمنهجه الذي يقوم على الاستناد الوثيق إلى الشواهد اللغوية العربية في المقام الأول، وإلى أعمال اللغويين والنحاة العرب، والابتعاد عن الفروض التي قد تكون بارعة ولكنها واهية الأساس. حصل على الدكتوراه الأولى نهاية 1889 من جامعة "هاله" عنوانها:" تراجم حياة الرواة الذين اعتمد عليهم ابن إسحاق" ونشرها عام 1890، واعتمد على كتب الرجال والتراجم خاصة "ميزان الاعتدال" للذهبي. كان يتمتع بقدرة فائقة في اللغة، وعلى فهم العربية ونصوصها الشعرية الجاهلية..عمل في معهد اللغات الشرقية في "برلين" من خريف 1896 إلى ربيع 1900 مدرسا للغة العربية وأمينا للمعهد ومحافظا لمكتبته. وفي هذه الفترة أتقن لغة التخاطب العربية، خاصة للهجة المغربية المراكشية، بفضل مدرس للهجة المغربية يدعى "الجيلاني الشرقاوي" وكانت ثمرة ذلك عدة مقالات عن هذه اللهجة، بدأها بواحدة جمع فيها أمثالا مغربية عنوانها "أمثال مراكشية" وتوالت المقالات في هذا السياق."[30].كان "فيشير" شديد الاهتمام باللهجات

العربية الحية لاعتقاده أنه يلج منها إلى استخلاص نظرات ثاقبة في سر العربية وكذلك فهم اللغات السامية بوجه عام. ويبدو أنه سيطر عليه هذا الشغف باللغة العربية اتصاله بالعالم العربي ورحلته إلى المغرب زائرا أغلب مدنها الكبرى. " وفي عام 1899 شغل كرسي اللغات الشرقية في جامعة "لبيتسك" وهو الكرسي الذي شغله أساتذة "فليشر" من قبل بدأ عمله فيه عام 1900 وكان مركزا قويا للدراسات الشرقية، وخصوصاً العربية في ألمانيا، فأمها دارسوا العربية وعلومها من سائر الأنحاء، ويذكر تلاميذه أنه كان نموذجا في دروسه ومحاضراته من حيث التدقيق في فهم خفايا النصوص العربية التي كان يشرحها، واستمر في منصبه حتى 1939. وبعد تقاعده استمر في التدريس في بيته، ورغم أنه كان في الرابعة والثمانين من العمر كان يشرح لبعض تلاميذه "ديوان امرئ القيس". وكان حريصا على التأكيد لطلابه على أهمية اللغة العربية ومعرفة دقيقة شاملة للنحو والمعجم والاستعمال اللغوي، وذلك قبل التصدي لأي بحث في ميدان الدراسات العربية والإسلامية، ويندر من يمتلك هذه الرؤية عند المستشرقين الآخرين."[31].

ويبدو أنه كان يرى أن دراسة النحو هي لب الدراسات العربية برمتها فقد أخذت المسائل النحوية مكانا واسعا في أبحاثه ومقالاته، كما عني بدراسة تاريخ اللغة العربية منذ أقدم نصوصها حتى لهجاتها الحالية، وكان ميالا إلى تحليل لغة الشعر لأنه وجد فيها أرسخ الشواهد لمعرفة العربية. ومن هنا اهتم بجمع كل الشواهد الشعرية الواردة في كتب النحو وشروح الشواهد. " وفي هذا الميدان صنف "فهرست الشواهد" وهو ثبت شامل للشواهد بحسب القوافي والشعراء. وكان "فيشير" يكره الاتجاه الذي ساد عند المستشرقين الباحثين في القرآن وهو إبراز تأثير الاتصال مع اليهود والنصارى باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم نشأ في بيئة عربية وثنية، بعيدة كل البعد عن أي بيئة أخرى. أما عن العربية الفصحى والإعراب فكان يرى أن الفصحى لم تنشأ عن لهجة قريش من الشعر الجاهلي، وأنها لم تكن لغة للعرب القدماء بوجه عام بل لابد أن تكون قد قامت على لهجة واحدة من لهجاتهم. وفيما يتصل بالإعراب يرى "فيشير" أن سكان مكة والمدينة وأجزاء من المناطق المحيطة كانوا قد تخلوا عنه في زمن النبي وقبله، ويرى أن ثمة أربعة أصناف مميزة للغة العربية وهي:1. لغة الشعر الجاهلي 2. لغة القرآن. 3. لغة النثر الواردة في "السير والمغازي". 4. لغة الحديث النبوي."[32]. إذا كانت هذه الأربعة بمثابة المصادر الأولى للعربية الفصحى فإن القرآن والحديث

النبوي ينبغي أن يتصدرا هذه التي سماها الأصناف، على خلاف في مصدرية الحديث والاحتجاج به في اللغة.

"وخير ما خلف "فيشير" هو معجم اللغة العربية القديمة مرتبا على المصادر، وقد قضى أربعين سنة في جمعه وتنسيقه، وقدم جذاذاته إلى المجمع اللغوي بمصر، وكان الدافع في التأليف هو الشعور بنقص المعاجم العربية وافتقارها إلى الشواهد في كل حالة. فجاء معجمه يستند في كل معنى ينطوي عليه اللفظ إلى شواهد خصوصا الشعر الجاهلي والأموي على وجه التحديد، وأعلن عن مشروعه الأول عام 1907 أثناء انعقاد مؤتمر الفيلولوجيين الألمان في "بازل" 1907، ثم في المؤتمر الدولي المنعقد للمستشرقين في "كوبنهاجن" 1908. وجمع في معجمه العربية القديمة لغة الشعر من بدايته إلى العصر الأموي، ولغة القرآن ولغة الحديث، ولغة المؤرخين، واستغل المواد المعجمية التي خلفها "فليشير" و"توربيكه" و"جولدسيهر" وغيرهم، وبدأ فيشر عمله سنة 1913 مستخرجا مواده من المعلقات والمفضليات والأصمعيات والحماسة والهاشميات، وشعر المراثي.. وفي الحديث اعتمد على البخاري، وأجزاء من تاريخ الطبري. فبلغ عدد الجذاذات في 1918 إثناء عشر ألف جذاذة وكان بمساعدة بعض الألمان والمصريين."[33]. ولما أنشئ مجمع اللغة العربية في مصر في 1932 عين فيشر عضوا فيه فاستأنف العمل بحماسة فصار يتردد على القاهرة في شتاء كل عام حتى 1939، ولما قامت الحرب لم يستطيع العودة إلى مصر بعد أن ألغيت عضويته في المجمع، ولكن مصير المواد التي جمعها وضعت لدى أمانة المجمع فضاعت ولم يبق منها إلا النزر القليل، حاولت بعض الجامعات الألمانية الحصول عليها لاستكمال الجهد ولكنها فشلت " والملاحظ على إنتاج فيشر الاقتضاب وعدم التوسع في بعض أبواب النحو واللغة، فكانت غالبية أبحاثة تعليقات صغيرة، وتصحيحات لغوية مفيدة نذكر منها: "المسألة الزنبورية" وأسماء الإشارة للمؤنث:"هذه، ذه، ته، هذه، ذه، وهذهي، ذهي، تهي" و" تركيب المصدر: ضرب عمرو زيد" و" الكلمة العربية أيش"."[34].

هـ بروكلمان كارل Carl Brockelman

عاش بروكلمان ما بين 18 سبتمبر 1868 و6 ماي 1956 ولد في مدينة "روستوك" " كان أبوه تاجرا فيما يسمى بسلع المستعمرات، وكانت أمه كما يقول عنها كارل في ترجمته الذاتية سيدة

موهوبة روحيا، ومنها ورث ميوله العلمية، وهي التي فتحت لابنها آفاق الأدب الألماني ولكن من سوء الأحوال المالية عاشت الأسرة في ضيق شديد، وفي المدرسة الثانوية في "روستوك" بدأ يظهر ميوله إلى الدراسات الشرقية يقول "بروكلمان":" وفي الصفوف العليا تجلت الميول التي ستسيطر على حياتي، بكل وضوح، وكانت هناك جمعية للقراءة تجتمع مرتين في الأسبوع لقراءة أبرز المجلات الجغرافية، وكان الوقت وقت الاكتشافات الجغرافية العظيمة في آسيا وإفريقيا، وعلى الطريق ارتبط خيالي بالمشرق، وكنت أهتم في المقام الأول بما يرد فيها من أخبار عن اللغات، ولهذا فإنني وأنا لا أزال تلميذا في المدرسة الثانوية وضعت مشروعا لكتاب نحو لهجة "البانتو" التي كان يتكلم بها في المستعمرة البرتغالية "أنجولا" وكان أشد الأماني إلحاحا علي أن أعيش فيما وراء البحار."[35].

درس بروكلمان على كثيرين العربية والحبشية، ففي أول أكتوبر 1890 عين مدرسا في المدرسة البروتستنتية في "اشتراسبورج" أولا تحت التمرين ثم مساعدا وفي نفس الوقت واصل دراساته العربية. " وما لبث أن تبين له أنه لا مستقبل له في هذه الثانوية البروتستنتية فقرر أن يبحر لوظيفة مدرس مساعد فيعد نفسه للانخراط في التدريس الجامعي فانتقل إلى "برسلاو" وحصل على الدكتوراه للتأهيل للتدريس في يناير 1893 برسالة عنوانها "عبد الرحمن أبو الفرج بن الجوزي" تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار، أصدر معجما سريانيا في فبراير 1895 ودعي إلى إعداد نشرة نقدية محققة لطبقات ابن سعد، والسفر إلى لندن واستنبول فلم يكتف بمهمته حول الطبقات بل انتهز الفرصة فنسخ نسخة من "عيون الأخبار" لابن قتيبة، وعاد إلى "برسلاو" وكان بروكلمان مكلفا بتحقيق الجزء الثامن من طبقات ابن سعد وتولى نشر عيون الأخبار بنفسه، ووجد في "قيمار" ناشرا مستعدا لتحمل النفقات بشرط أن يقدم له بروكلمان كتابا آخر أكثر رواجا فقرر أن يصنف كتابه العظيم "تاريخ الأدب العربي" امتد طبعه من 1898 إلى 1900 وكان بروكلمان يتقن إحدى عشر لغة شرقية."[36]. رحل "كارل" عن عمر يناهز التسع والتسعين عاما وترك بعده تراثاً واسعا أبهر الكثيرين، وشكل مادة دسمة لأبحاثهم وطروحاتهم، وخدم هذا المستشرق الفذ التراث العربي، خدمة لا نظير لها بشهادة الدارسين.

فعرف "بكثرة نشاطه وغزارة إنتاجه الذي اتصف بالموضوعية والعمق، والشمول والجدة، مما جعله مرجعا للمصنفين في التاريخ الإسلامي، والأدب العربي فنوع إنتاجه ما بين نشر وترجمة،

وتعليقات وشروحات وتحقيقات وتأليفات، فكتب: الكلمات اليونانية الدخيلة على الأرمينية. والمعجم السرياني، ورسالة في لحن العامة للكسائي مذيلة بتعليقات وفوائد، وعن كتابه في الأدب العربي النفيس عرض فيه تراجم العلماء والأدباء في العصور الإسلامية جمعاء، وذيل كل ترجمة بمصادرها، ووصف الكتب وميزاتها وتاريخ طبعها، ومكانها في الشرق والغرب، وأحصى المخطوطات في مكتبات أوربا، فجاء نموذجا في ترتيبه وسعته ودقته وحسن إخراجه، نقل منه عبد الحليم النجار ثلاثة أجزاء إلى العربية، ونشرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. وكتب عن قواعد علم النبر والعروض في اللغة السريانية، ومؤلفات ابن المقفع في البيان والبلاغة، وملاحظات على علمي النحو والصرف في العربية والأرامية وكتاب المفصل في علم النحو والصرف المقارن للغات السامية، والصيغ المتشابهة في اللغات السامية، والجوهري وترتيب الهجائية العربية، وأسماء التصغير والتكبير في اللغات السامية. وملاحظات على سر الصناعة لابن جني وما قاله في اسم الإشارة المؤنث، واشتقاقات مصرية قديمة ومناسبتها للغات السامية، واشترك مع "شبولير" و"هوفنير"، و"فوك" في تصنيف كتاب العربية فقها وأدبا كما أسهم كارل بدراسات واسعة جدا في دائرة المعارف الإسلامية[37]" [38].

و-يوهان فكJohannFück:

" ولد يوهان فك في 8جويلية1894 بفرنكفورت أماين وتوفي في 24 نوفمبر 1974بهاله كان كاثوليكي المعتقد وكان أبوه نجارا. درس الفيلولوجيا الكلاسيكية من 1913 إلى 1916 في جامعات هاله وبرلين وفرنكفورت، وما بين 1916 إلى 1917 أدى الخدمة العسكرية. وفي فبراير 1918 إلى 1920 بقي متربصا في الجامعة وفي 1921 بدأ في التحضير لرسالة الدكتوراه في الفيلولوجيا، وما بين 1921 و1930 درس اللغة العبرية في جامعة فرنكفورت، وفي 1929 تخصص في الدراسات الإسلامية، في 1930 إلى 1935 انتقل إلى الهند أستاذا وفي نفس الوقت كان مديرا لفرع اللغة العربية والإسلام، ثم من 1935 إلى 1938 درس العربية وعلومها في جامعة فرنكفورت وفي 1936 أصبح أستاذا حرا (فوق العادة) في نفس الجامعة، وفي 1938 استدعى من قبل جامعة هاله ليرأس مكتبة دول الشرق الأوسط وفي 1962 أحيل إلى التقاعد.

وقد امتاز يوهان فك بأنه كان من المدرسين الممتازين يميل إلى البساطة، كان كثير التواضع دقيق الملاحظة حاضر النكتة، وكان حريصا جدا على تنمية القدرات الكلامية عند طلابه، وكان يرفض أن يشرف غيره على تدرس اللغة العربية لشعوره بمسؤولية كبرى نحوها لاعتقاده أنه يملك أسرار العربية ما لا يملكه غيره خوفا من التشويه والطمس. توفي في مدرج جامعة هاله وهو يلقي محاضرة وقد جاوز عمره الثمانين، وبوفاته فقدت الساحة العلمية الألمانية شخصية علمية غير عادية"[39].

ولقد أحصى الباحثون للمستشرق "يوهان فك" عددا من المؤلفات والمقالات والبحوث نشرت في مجالات مختلفة، كان أغلبها يتمحور حول قضايا اللغة العربية وأبرز هذه الآثار: " العربية لغة وأسلوبا. في "برلين" 1950، وقد نقله إلى العربية عبد الحليم النجار في القاهرة 1951، ونقله إلى الفرنسية "نيزو"، ونشره بمقدمة المؤلف ومدخل "لكانتينو" في باريس 1955، وبمعاونة "بروكلمان"، و"شبولير"، و"هوفنر". وكتب: العربية فقها وأدبا، وألف "العربية" بحوث عن تاريخ لغتها وأسلوبها في ليدن 1954 وله: الدراسات العربية في أوربا عام 1944- 1955 في "ليبزيج" ومن مباحثه: محمد بن إسحاق، وفي الآداب الشرقية كتب "القرآن" في 1933، و"حديث البخاري" في 1938 و"الإسلام" في 1938، و"الصوفية" عام 1940، و"ترجمة القرآن" سنة 1944، و"الموسيقى العربية" في 1953. وفي المجلة الشرقية الألمانية نشر فهرست ابن النديم وهو يعد طبعة جديدة له، و"أصالة النبي محمد" في 1936، و"تصغير الجمع" عام 1936، و"مكانة المحدثين في الإسلام" في 1939، و"أوجيست فيشير" في 1950، وفي غيرها "الحديث"، و"الكيمياء في كتاب الفهرست" في 1951، و"البيروني" في 1952، و"محمد شخصيته ودينه"، و"محمد إقبال" و"المعتزلة"، و"كارل بروكلمان". وكتب حول اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، ومحي الدين الأصفهاني، وتقويم قرطبة، ومحمد بن سعيد العوفي وأصل التشريع الإسلامي."[40]. يبدو أن "يوهان" اهتم بما اهتم به غيره من المستشرقين خارج الدراسات اللغوية الذين كتبوا حول قضايا تقصدوها، وكأن لهم من ورائها مآرب وأغراض كموضوع الفرق الإسلامية، والتصوف والصوفية، وبعض الشخصيات الإسلامية والرموز التاريخية، والتي كانت لها مواقف متباينة. والأهم من هذه الدراسة هو الوقوف على ما ألفه "فك" حول العربية، وما دقق النظر فيه فعد عملا رائدا يستحق التنويه، فحظي بالترجمة

والتعاليق والشروحات، فكان في المقام الأول كتابة "العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب".

و في ختام هذا البحث نخلص إلى جملة من النتائج وهي:

1- ضرورة إخضاع الظاهرة الاستشراقية إلى المنطق العلمي الدقيق، والرؤيا الموضوعية بعيدا عن الأهواء والأحكام المسبقة.

2- المدارس الاستشراقية ليست في موقع واحد في تعاملها مع التراث العربي والحكم عليه وهي لا تنطلق كلها من مواقف عدائية للعرب والمسلمين.

3- المدرسة الألمانية مثلت الاستشراق الإيجابي والمنصف أحسن تمثيل وبشكل عام.

4-ضرورة التمييز بين المدارس الاستشراقية بعد الدراسة الفاحصة المتأنية عند الوقوف على إشكالية الأنا والآخر.

5-تبقى العديد من العوائق التي تعترض طريق المستشرقين في قراءتهم للتراث العربي والإسلامي قائمة ومن أبرزها: فهم اللغة العربية في ألفاظها ومعانيها وأساليبها وبلاغتها..

الهوامش:

[1]- ساسي سالم الحاج، الظاهرة الإستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، الجامعة المفتوحة، طرابلس، ط3، 1997، ص 7- 8.

[2]-يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص79.

[3]-اسماعيل أحمد عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2003، ص 321-322.

[4]-أنظر على سبيل المثال مقالات وبحوث لاسماعيل أحمد عمايرة في كتابه "بحوث في الاستشراق واللغة" المقال بعنوان "الفصحى في الدرس اللغوي وكتب تعليم العربية عند المستشرقين الألمان"ص319، ومقال آخر بعنوان: "المراحل الزمنية للغة العربية الفصحى" بقلم المستشرق: "فولف ديتريش فيشير" ص 485 ومقال بعنوان: "الجمل المصدرة ب أن و"أن" لنفس المستشرق، ص 493، قام عمايرة بترجمتها عن الألمانية.

[5]-المرجع السابق، ص 160، 161، 162.

[6]-أحمد محمد هويدي، الاستنشراق الألماني تاريخه وواقعه وتوجيهاته المستقبلية، مطابع دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، 2000، ص 3.

[7]-نفس المرجع، ص 19.

[8]-نجيبالعقيقي، المستشرقون، ج2، ص 341.

[9]-أحمد محمود هويدى، الاستشراق الألماني، ص 163.

[10]-صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1978، ج1، ص 7- 8- 12.

[11]-علي بن إبراهيم النملة، المستشرقون والتنصير، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، (د- ت).

[12]-محمود حمدي زقزوق، الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2008، ص 58-59.

[13]-نفس المرجع، ص 59-60.

[14]-يرى بعض الباحثين ضرورة الإشارة إلى أنه منذ صدور كتاب نجيب العقيقي وعبد الرحمن بدوي حول المستشرقين، وقبل أكثر من ثلاثين سنة لم تصدر كتابات تهتم بسير المستشرقين المعاصرين وتراجمهم.

[15]-ساسي سالم الحاج، الظاهرة الإستشراقية، ص 155.

[16]-المرجع السابق، ص 162.

[17]-يوسف أبو العدوس، الاستعارة في دراسات المستشرقين فلفهارتهانيريشس نموذجا، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1998، ص 8 وما بعدها.

[18]-ملك ميمون، المستشرقون ودراسة العروض العربي، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والعلوم، الكويت، المجلد 3، العدد 2.

[19]-إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط4، 1995، ص 52-53.

[20]-نجيبالعقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط5، 2006، ج2، ص 354-355.

[21]-نفس المرجع، ج2، ص 355.

[22]-عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار الملايين، بيروت، ط3، 1993، ص 298- 299.

[23]- نجيبالعقيقي، المستشرقون، ج2، ص 365.

[24]-يوهان فك، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، ط2، 2001، ص 167.

[25]- نفس المرجع، ص 85.

[26]-التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997، ص 3-4.

[27]-رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص 158.

[28]-نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص 450- 451، وينظر أيضا عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين ص 86-87.

[29]-رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص 157-158.

[30]-عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 303-304.

[31]- نفس المرجع، ص 404.

[32]-نفس المرجع، ص 405.

[33]-نجيبالعقيقي، المستشرقون، ج2، ص 415-416.

[34]-عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 406.

[35]-نفس المرجع، ص 98.

[36]-نفس المرجع، ص 100-105.

[37]-لا يسعنا المجال لذكرها لكثرتها وتنوعها ما بين شخصيات أدبية، ولغوية، وتاريخية، وإسلامية، وعلمية وغيرها..

[38]-نجيبالعقيقي، المستشرقون، ج2، ص 424 وما بعدها.

[39]-http://www.catalogus-professorum-halensis.de/fueckjohann.html. 29/06/2008

[40]-نجيبالعقيقي، المستشرقون، ص 463- 464.